له ذلك ببال واستطرد الكلام فقال : ان جزيرتي هذه كبيرة جداً ولا استطيع القيام بشؤونها خير قيام ذلك لأن الملك يجب أن يعرف كل شيء يجري في بلاده لأنه وحده الملك . ويبلغ عدد رعاياي ستة آلاف نفس ومع ذلك فلا أستطيع الوقوف على ما يعمل كل واحد منهم

فقال له الكاتب ان امبراطور روسيا المطلق يحكم على نحو ١٧٠ مليوناً من النفوس فلم يصدق لان راوا هذا الكلام أولاً لكنه عاد .فقال : انه لا يستطيع أن يقف بنفسه على كل ما يجري في مملكته ولذلك فان اجراءاته لا تسير على محور العدالة والنجاح . وأؤكد لك أن ملكه لا يدوم طويلاً

وختم الكاتب مقالته بقوله : أن هذا الملك الجاهل المطلق في جزيرته البعيدة أتقن حرفته أكثر من زملائه الاوربيين الذين دالت دولهم وتحطمت شوكتهم .

رحلة صاحب المجلة

٢

عكا

امتطيت متن سيارة من حيفا الى عكا. قطعت المسافة بثلاثين دقيقة وكانت تسير على شاطئ البحر المبتل بالماء والامواج يطرد بعضها بعضاً فتتكسر وتلطم عجلات السيارة فيخرج منها صوت أطرب من رنات المثاني والمثالث يطرب الناظر ويسر الخاطر والمسافر لا يحول نظره عن البحر الخضم الصافي لون الماء والنسيم يهب من جهته فينعش النفس ويشرح الصدر ويزيل صدأ الهموم والكآبة وينشر على سطح البحر حلقات ودوائر تلمع من انعكاس أشعة الشمس الوهاجة التي يخالها الناظر سلاسل ذهبية متصلة في نهايتها بأطواق من لجين وقد ذكرت قول الشاعر القائل

قشر الزبيع على الماء ورده ياله درعاً منيعاً لو جمد

ومررنا في طريقنا على نهر المقطع (قيشون) الذي ذبح عليه النبي ايليا أنبياء البعل (امل ١٨ : ٤٠) ثم مررنا على نهر النعامين (بيلوس) وقد أقامت الحكومة العثمانية على كل منهما جسراً لمرور السيارات والعربات والدواب وفي فصل الصيف يقل ماؤهما بحيث تخوض السيارات والعربات ماؤهما عند مصبهما في البحر . والارض بين حيفا وعكة عبارة عن صحراء رملية جرداء لا تصلح للزراعة ولا ينبت فيها غير الاشواك

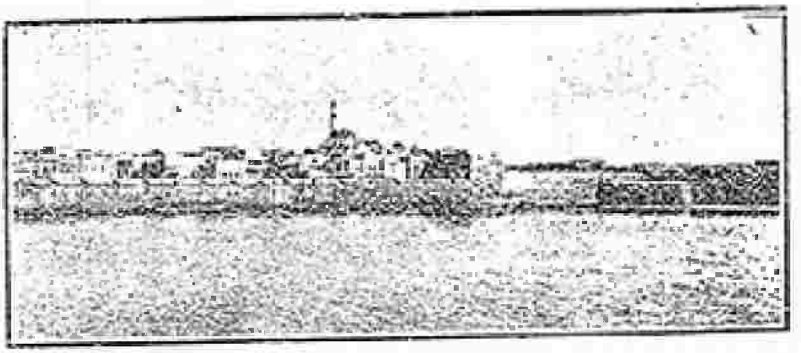

منظر مدينة عكة العام وفي وسطها جامع الجزار الشهير

اذا تصفحنا التاريخ لا نجد مدينة كثيرة الحوادث التاريخية والوقائع الحربية مثل عكة فقد كانت قبلة أنظار الفاتحين ومطمح الغزاة والمحاربين . والمدينة قائمة على رأس مثلث داخل في البحر في المنتهى الشمالي من خليج عكة البالغ اتساعه ١٢ كيلومتراً والموصد برأس الكرمل . وتبعد عن بيروت نحو ١٨٠ كيلومتراً وهي محاطة بثلاثة أسوار داخلة بعضها ولكن اجزاء السور المتاخمة للبحر تهدمت وأما اجزاؤه البرية فلا تزال مستحكمة ومتينة

تغلبت على عكة حكومات مختلفة فقد حكمها الفينيقيون واليونان واليهود والصليبيون والعرب والترك ودخلها ريتشارد المقلب بقلب الاسد وسماها القديس سان جان (Saint-Jean d'Acre) ثم ملكها الملك الاشرف والشيخ ظاهر العمر ثم

احمد باشا الجزار وحاصرها نابليون ثم يستطع فتحها وروى بعض المؤرخين انها القلعة الوحيدة التي ارتد نابليون عنها خائبا ثم جاء ابراهيم باشا فهدم كثيراً من أبنيتها بقنابل مدافعه وألقى الاسطول الانكليزي والنمساوي قنابلهم على أسوار دكه وشاد فيها أحمد باشا الجزار جامعاً فخماً تتطاح مآذنه بطوها السيل ومدرسة أيضاً جاء بحجارتهما من قيسارية وفي داخل الجامع المكتبة الاحمدية وفيها كتب قيمة أنشأها الجزار المذكور عام ١١٩٦ ويبلغ عدد الكتب فيها ١١٩٩ منها ٤٨٨ كتب تفسير وحديث وقصص نبوية و ٩٦٦ كتب لغة وتصوف وأدب والباقي كتب تاريخ وجغرافية وغيرها من العلوم والفنون

قلنا ان المدينة محاطة بسور له بوابة حديدية ضخمة فاذا دخلها الانسان سار بعد ذلك بين سورين مرتفعين وشوارع المدينة ضيقة كأنها أنفاق ذات تعاريج متعددة وقلما يدخلها نور الشمس بسبب تلاصق أبنيتها

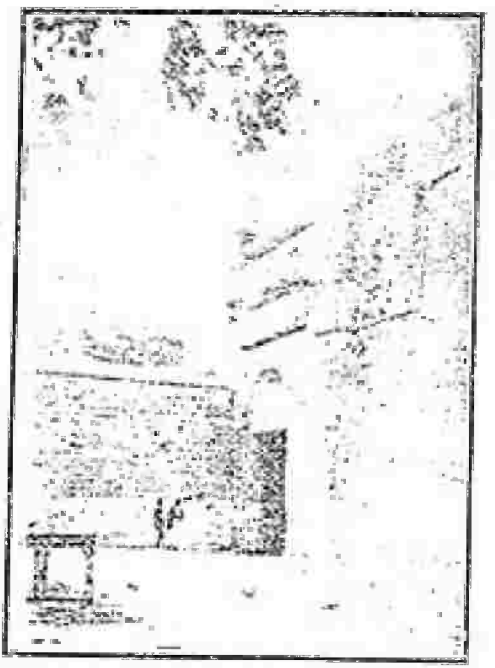

(بوابة عكا وسورها)

والحالة الصحية في المدينة رديئة جداً ولا تفارقها الملاريا والحمى الراجعة ولذلك أسباب عديدة أهمها وجود المستنقعات بجوارها ولا سيما مستنقع الشحوطة الذي تتراوح مساحته بين الكيلو مترين والثلاثة وهو يتكون من طغيان نهر النعامين في فصل الشتاء ثم يوجد داخل البلدة في الجهة الغربية مستنقع تبلغ مساحته مائتي متر ويتكون من مياه الامطار ويسمى كفر الخمام ويوجد أيضاً مستنقعات أخرى أضف الى ذلك رطوبة البلدة الشديدة لعدم نفوذ أشعة الشمس الى شوارعها ومنازلها بسبب تلاصق الابنية المرصوصة بعضها الى جانب بعض والروائح الكريهة التي تنبعث من مراحيض المنازل . والواجب يقضي على الحكومة ردم تلك المستنقعات رحمة بالاهالي وأما ماء عكا فلو انه عند مخرجه من قرية الكابري جيد لكنه يجيء البها بطريق مصنوعة من الحجارة ويتعرض في طريقه للاوساخ والاقذار وتتولد فيه الميكروبات وكان الواجب على الاهالي والحكومة أن يوصلوه بأنابيب من الحديد فيصل نظيفاً رائقاً مجرداً من الشوائب . كانت عكا فيما مضى فرضة تجارية بل كانت مخزناً لجميع حاصلات حوران فكنت ترى أيام بواباتها يومياً نحو خمسة آلاف جمل تصلها موقرة بالحبوب وتعود منها موقرة بالسلع والبضائع والمواد الغذائية . ولكن تجارتها تحولت الى حيفا فضاقت فيها سبل المعيشة وبارت تجارتها وعم أهاليها الفقر وأنا نعرف عائلات كثيرة كانت على جانب عظيم من الثروة أصبحت في هذه الايام تقاسي آلام الفقر والحاجة . زرنا في عكا حضرة الاستاذ العالم الشيخ ابراهيم افندي العكي فاستقبلنا بما عرف عنه من اللطف ومكارم الاخلاق وتباحثنا معه في هذا الصدد فقال لنا : انه بعد الحرب الكونية كسدت تجارة عكا واقفلت مخازنها التجارية الكبرى فاذا جاءها الفلاحون لا يجدون في اسواقها ما يكفي لسد حاجاتهم فتحولوا إلى حيفا . وانجع طريقة لانهاض السوق وعودة الحالة التجارية إلى حالتها القديمة هو انشاء شركة تجارية وطنية تقوم بفتح محلات تجارية واسعة النطاق تقوم بمطالب الفلاحين وقال انه يفكر في انشاء هذه الشركة في المستقبل القريب فشكرناه على هذه الهمة ولنا وطيد الرجاء بأنه سيبرز

هذه الفكرة الى حيز الوجود فيخلد له ذكراً جميلا . ثم زرنا نيافة الحبر الجليل السيد كلاذيون مطران عكا وحيفا وتوابعهما للروم الارثوذكس

نيافة الحبر الجليل السيد كلاذيون مطران عكا

هذا السيد الجليل موصوف بلين الجانب والتواضع ودماثة الاخلاق والبشاشة التي لا تفارق وجهه البسام وهو كثير العطف على ابناء رعيته شديد الحب لهم يهتم بشؤونهم اهتمام الاب البار يساعد فقراءهم بقدر ما يسمح اليه المجهود وهو لا يستنكف من مقابلة أي انسان منهم مهما كانت حالته حتى انه عاق في دار المطرانية لوحة حدد فيها مواعيد مقابلاته اليومية . ومن صفاته انه يبذل كل مجهوداته لتوطيد دعائم السلام والوئام والاتحاد بين افراد رعيته فاذا ما وقع خلاف

أو نزاع بين بعض العائلات أو بين الجمعيات بذل كل جهده لازالته وكثيراً ما يسافر إلى حيفا والقرى التابعة لابرشيته متفقداً شؤون رعيته باذلا وسعه لترقيها واعلاء شأنها .

تخرج سيادته من مدرسة المصلبة اللاهوتية في مدينة القدس حيث درس العلوم وأتقن اللغة العربية بحيث أصبح يعرفها كأحد أبنائها يكتب ويعظ بها — وقد قدرت الطائفة له هذه الصفات حق قدرها فأحبته وأجلته نسأل الله أن يكثر من أمثاله بين رجال الدين الذين وقفوا نفوسهم على خدمة الله والناس بالاخلاص والمحبة والتقوى

صيدا

سارت بنا السيارة من عكا مارة بالبهجة وهي حديقة غناء واسعة الاطراف مترامية الأكناف وإلى جانبها ضريح حضرة بهاء الله مؤسس المذهب البهائي

ثم مررنا بعدة قرى أشهرها الزيب والبصة والطريق في هذه الجهات طبيعية لم تعمل فيها يد انسان وقد أخذت الحكومة من عهد قريب باصلاحها وجردت عليها جيشاً من المسجونين وقد رأيناهم يعملون جمعة زائدة وما زلنا نسير بين مرتفعات ومنخفضات والسيارة ترتفع وتهبط حتى بلغنا رأس الناقورة الذي كانوا يسمونه قديماً (*Tyrianum Scalæ*) أي سلم أو صخرة الصوريين . وعند هذا الرأس تنتهي الحدود الفلسطينية وعليه مخفر يقيم فيه بعض الجنود الانكليز فأشرنا على جوزات السفر وبعد قليل وقفنا أمام مخفر فرنسي آخر موظفوه على جوزات سفرنا وبجواره قهوة وعين ماء على شاطئ البحر فاسترحنا هنا وتناولنا طعام الغداء ثم واصلنا السير حتى وصلنا صيدا، وهي مدينة مبنية على لسان في داخل البحر على بعد ٣٤ ميلاً من بيروت وكان لها سور وقلاع تهدمت سنة ١٨٤٠ بكرات المدافع الانكليزية وفيها آثار قلعة قديمة يظهر أنها مبنية في أوائل القرن المسيحي وفي ٢٠ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٥٥ اكتشف فيها فاروس نقل إلى متحف اللوفر

منقوش عليه بالخط الفينيقي ٢٢ سطراً ومعنى الكتابة « ان مدينة صيدا مقر راحة شلمناصر ملك الصيدونيين ثم وجدت نقود ذهبية في أنحاء مختلفة من المدينة تعزى إلى أيام اسكندر الكبير وفي ١٢ ايار (مايو) سنة ١٨٧٧ اكتشفوا فيها عدة نواويس أرسلت إلى المتحف السلطاني بالاستانة وبينها تاووس من آثار الفينيقيين على مثال التوابيت المصرية وجدت فيه جثة محنطة (مومياء) إلا ان الرطوبة أثرت فيها فتهرى اللحم من الاجزاء الناتئة عنها مياه التصبير وقد أخذت الجثة إلى الاستانة مع ٢٢ تابوتاً وأما الغطاء فهو حجر كحلي اللون من جنس التاووس مرسومة عليه صورة رأس ووجه وبدن غير تام الاعضاء وفي طرف ذقنه صورة شخص راكع باسط ذراعيه إلى جانبيه عليهما جناحان وعلى رأسه دائرة كأنها مثال للشمس وعلى التابوت تحت الصورة خطوط هيروغليفية وفينيقية وهذه ترجمتها : « أنا تبنت كاهن عشتروت ملك الصيدونيين ابي اشمنعزر اتراقد في هذا القبر أعلن كل من يريد فتح قبري انه ليس فيه ذهب ولا فضة ولا حجارة كريمة فاذا تجاسرت وأقلقت راحتي لا يكون لك توفيق تحت الشمس ولا تكون لك راحة في قبرك »

وقد قال حمدي بك مأمور الآثار المرسل من الاستانة عند ما اطلع على هذه الترجمة لو أمر صاحب هذه الكتابة بنقشها على هذه المغارة باللغة التركية لربما نفذنا أوامره ولكن كيف نجيب طلبه ونحن نجهل الفينيقية والهيروغليفية . وفي صيدا حدائق غناء وبساتين فيحاء كثيرة الانهار تسقى من ماء النهر الذي يستقي منه أهل المدينة وهو أفضل المياه عند مخرجه في الباروك وأردأها عند وصوله إلى صيدا وذلك لانه يجري مسافة يوم تحت الشمس تخوضه المواشي والناس . وكانت هذه المدينة في سهم سبط أشير كما جاء في سفر يشوع (١٩ : ٢٨) ولكنهم لم يقدروا عليها (قض ١ : ٣١ و ٣ : ٣ : ١٢) وأخذها شلمناصر ملك أشور نحو ١٢٠٠ ق . م . وسلمت لاسكندر بن فيلبس المكدوني سنة ٣٣٢ ق.م . ثم صارت لملوك مصر وسوريا ثم للرومانيين ثم للمسلمين ثم للافرنج سنة ١١١١ م . ثم

لصلاح الدين الايوبي بعد واقعة حطين سنة ١١٨٧ وبقيت في حالة الخراب الى أوائل القرن السابع عشر حينما أخذ الامير فخر الدين المعني أقامة أبنية كانت بها وكان بعد ذلك للفرنصيين تجارة واسعة فيها واننا أوجزنا الكلام في تاريخها لان حضرة الفاضل صاحب مجلة العرفان الغراء التي تصدر فيها كفانا مؤونة التطويل . ولكن ذلك لا يمنعنا من القول ان تجارة صيدا في العهد القديم كانت واسعة النطاق حتى ذكرها هوميروس الشاعر اليوناني بقوله : كان أهالي صيدا ماهرين بارعين فنبغوا بتجارتهم نهضة محسوسة ووسعوا نطاقها حتى انهم أسسوا لانفسهم مراكز تجارية في محيط البحر الابيض وفي المحيط الاطلسي وعاشوا عيشة مستقلة ولكن تجارتها الآن كاسدة والفقر المدقع ضارب فيها اطنابه ورافع قبابه وتجارتها الآن منحصرة في الفواكه كالبرتقال والليمون وقد قرأت لها احصاء صدر سنة ١٩٠٢ جاء فيه ان حدائق صيدا تخرج سنوياً ٧٠ مليون برتقالة و٣٠ مليون ليمونة حامضة وقد أصدروا منها في العام المذكور خمسين الف صندوق برتقال وليمون وجاء في ذلك الاحصاء انه يوجد ٥٠ بستاناً تشتغل باستخراج القز .

منازل صيدا الداخلية متلاصقة قليلة الزخرف وشوارعها ضيقة جداً ومظلمة وقلما تنفذ اليها أشعة الشمس ولذلك تكثر فيها الرطوبة وأما منازلها الواقعة في خارج البلدة فانها من الطراز الحديث شاهقة البنيان فسيحة الارجاء . زرنا هذه المدينة في أيام عيد الاضحى المبارك وذهبنا توا لزيارة حضرة رصيفنا الاستاذ العلامة صاحب مجلة العرفان فلم نجده لسوء حظنا لان الادارة كانت موصدة بسبب العيد ثم تشرفنا بزيارة سيادة الخبر الجليل والراعي النبيل السيد باسيليوس خريباطي مطران الروم الكاثوليك فقابلنا بما عهد فيه من دماثة الطبع والمكارم واللطف المتناهي وهو عالم جليل واسع الاطلاع مشهور بسمو المدارك وغزارة المعارف شديد الغيرة على أبناء رعيته

وفي صيدا صديقنا الالمعي الهمام اسكندر افندي قطران مدير ادارة الريجي الذي قضى الشطر الاوفر من حياته في خدمة هذه الشركة متنقلا بين عكا

نيافة الحبر الجليل السيد باسيليوس خريالله مطران الروم الكاثوليك في صيدا

ونابلس واللاذقية وحلب وله في خدمتها آثار مشكورة وعندما دخل الانجليز حيفا وعكا كان في مقدمة الذين قابلوا قائد الحملة الاورد اللنبي وألقى بين يديه كلمة ترحيب وهو رجل معروف بالنشاط والهمة والاقتدار وفضلا عن ذلك فانه لطيف المعشر أنيس المحضر محبوب من جميع الناس على اختلاف الاجناس

ومن رجال صيدا المشهورين بالهمة وحسن الادارة حضرة سليمان بك نمور مدير البوسطة والتلغراف فقد سمعنا عنه ثناء عاطراً تردده الالسن وذلك لما يقوم به من خدمة الجميع وتسهيل اعمالهم وما يبديه من النشاط والهمة في ادارة أعماله أكثر الله من أمثاله رجال الفضل والهمة .

الكتور احمد فهمان مدير ادارة الركب في سيدا

سليمان بك فوزي مدير البوستة والتلغراف في سيدا